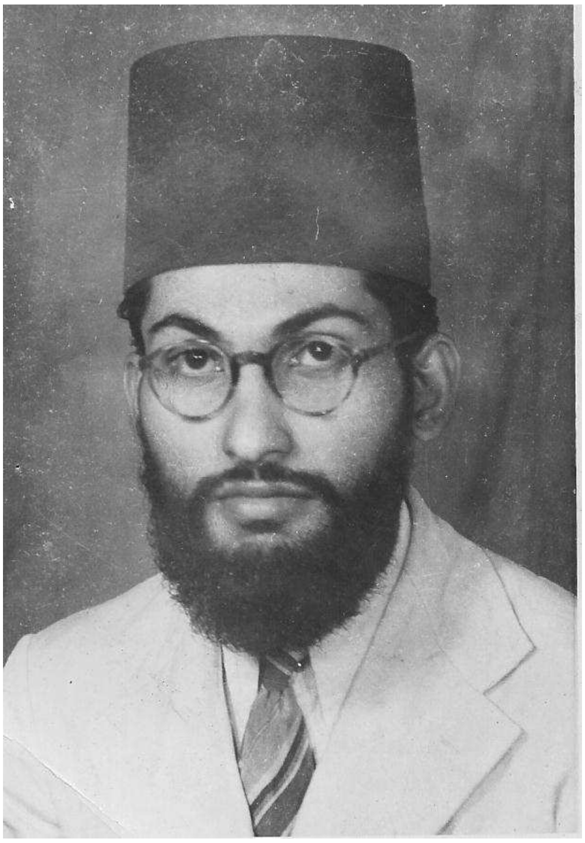
التقديم :

https://nidaulhind.blogspot.com

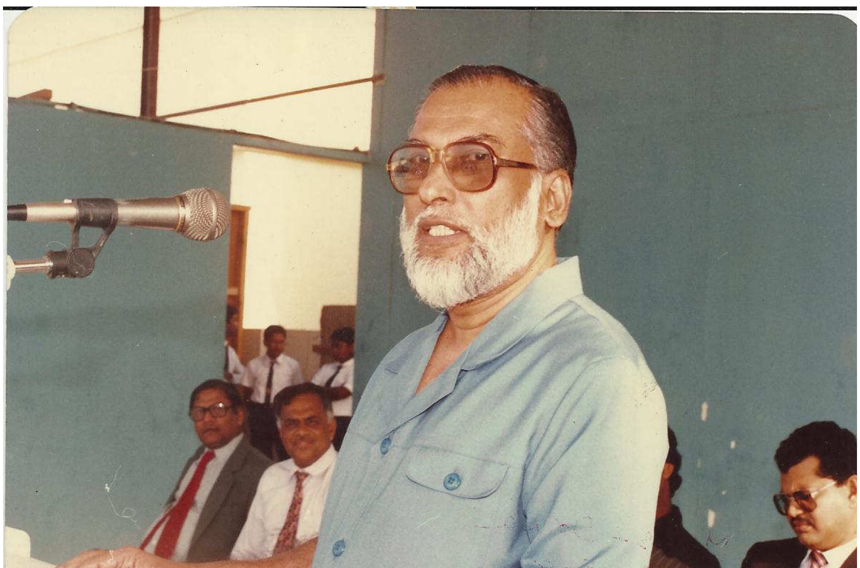
مدونة علمية دعوية فكرية

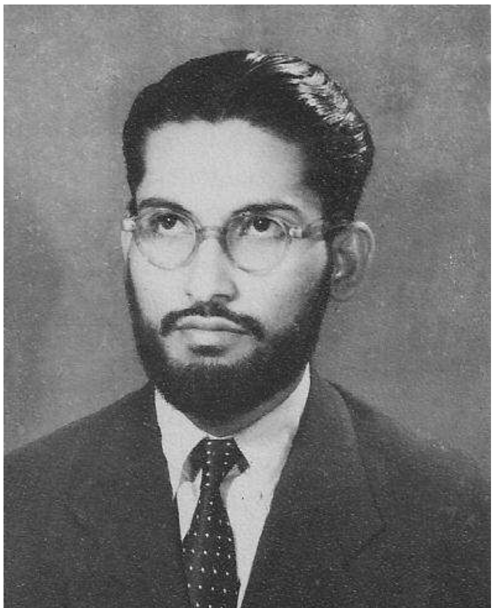
(راجيا دعائكم)

الكاتب البحاثة رحمه الله محيي الدين الآلوائي المليباري









« مليبـــار »

﴿ كيرله ﴾

للأستاذ محى الدين الألوائى

﴿ مواطن المهاجرين العرب الأولين فى الهند ﴾

تقع بلاد مليبار على ساحل بحر العرب فى غرب جنوب الهند. وكانت لها علاقات تجـارية وثقافية مع البلاد النائية قبل أن يفد إليها اليهود والصوماليون والعرب. ويقول بعض المؤرخين: « إن الكلدانيين حاولوا توثيق الروابط التجارية مع مليبار قبل ألفى عام للميلاد ». وتوجد وثائق تاريخية تدل على وصول تجـار الروم إليها قبل القرن الرابع للميلاد. وكانت تحكم جنوب الهند فى ذلك الوقت ثلاث حكومات معروفـة پانديا، وچولا، وچيرا. والكتب القديمة فى التامليـة والدراودية اللغتين السائدتين فى جنوب الهند فى ذلك العصر تلقى ضوءا على تلك الحكومات وسياستها وتقاليدها وطقوسها. واليونانيون والروميون الذين امتلكوا زمام التجارة العالمية فى ذلك الوقت كانوا استوردوا البضائع التجارية من مليبار وتبادلوا السلع معها.

وتوجد إشارات وتلميحات عن مليبار وعن علاقاتها بالخارج وثقافاتها الخاصة فى الملاحم الهندية الكبيرة والأساطير القديمة، مثل مهابهارت، وراماياتام، وايوپورانم وبهاگوتم وغيرها. ولكن المؤرخين المحققين لم يعتمدوا على هذه الأساطير والملاحم الهنـدية كما اعتمدوا على المستندات الخارجيـة فى كتابة تاريخ مليبار وعلاقاتها الخارجية.

فلما أغار الجنود الحالون على الروم فى عام ٣٩٠ قبل الميلاد، استولوا على أشياء ثمينة وبضائع قيمة، ومن ضمنها الفلفل، وكان يعتبر الفلفل والحديد من أهم البضائع المستوردة عند الروم.

ونجحت تجارتهم نجاحا باهرا بفضل التبادل التجارى مع البلاد الشرقية. وبدءوا التجارة البحرية منذ ألف ومائة عام قبل الميلاد. ولم يتسرب اليأس إلى أذهانهم بسبب العوائق والعقبات التى اعترضت لارسال سفنهم التجارية إلى البلاد النائية مثل الهند والصين وغيرهما. وتقدموا فى هذا الميدان بأمل وتفاؤل بالغين فى المستقبل.

وفى عهد استيلاء الملك اغسطسين على مصر وقع البحر الأحمر تحت إمرة البحرية الرومية. فبدأت هذه البحرية ترسل قواتها الاستطلاعية إلى شتى بقاع العالم. وفى أيام كلاديوس (أو قلاديوس) وصلت جماعة من بحارة الروم إلى سواحل مليبار قادمين توا من موانئ البحر الأحمر. فاكتشفوا لأول مرة بأنه من الممكن الوصول إلى سواحل جنوب الهند بدون المرور بسواحل جزيرة العرب. وتبعه قدوم الروميين والمصريين إلى سواحل مليبار جماعات وفرادى! وكان يستغرق السفر من مصر إلى مليبار شهرين وعشرة أيام كاملة.

وهكذا علموا التغييرات الجوية والتقلبات الموسمية جيداً. فتيسرت لهم السبل للوصول إلى هذه البقعة الغنية المليئة بأنواع من المحصولات النادرة والمعادن الثمينة. وساعدت رحلات تجار الروم المتواصلة إلى مليبار على توطد علاقاتها مع الخارج بسرعة فائقة.

وبنى الروميون سفينة كبيرة للتجارة مع بلاد مليبار، وسموها باسم «هيبالوموسرى» تخليداً لذكرى بطل القوات البحرية الرومية «هيباليوس». وهو الذى اكتشف لأول مرة الاجواء الموسمية فى هذه الخطوط وعلمها لهم. وبنى معبد

كبير فى عاصمة مليبار تذكاراً للفاتح العظيم «يسسر أغسطسين». ويعرف الروم فى الآداب التاملية باسم «نونر». فلما تجددت الانقلابات واشتدت الاضطرابات فى الروم نفسها اضمحلت التجارة التى كان يقوم بها الروم مع مليبار. وارتفعت أسهم التجار الأجانب الآخرين فى مراكز التجارة بسواحل مليبار. وكان الروميون هم الذين يتولون زمام التجارة بمليبار إلى عام ٢٣٠ للميلاد. ومع سقوط مدينة الاسكندرية انهارت زعامتهم فى التجارة العالمية. ومما هو جدير بالذكر أن الروميين كانوا همزة الوصل بين مليبار وبين العالم الخارجى فى بادئ الأمر.

وكان للفلفل الأسود أثر فعال فى جذب التجار الأجانب إلى جنوب الهند. ويحدثنا التاريخ بأن معارك دامية وقعت فى لجج بحر العرب بين القوات المختلفة كانت فى سبيل هذه الفلافل العزيزة. وسقط فيها مئات الأبطال متحاربين للذتها. بل وكان السبب الحق وراء جميع الحروب التى نشبت فى الروم هو فلفل مليبار وحب السيطرة على أسواقه واستطاعت هذه الحبة الصغيرة أن تستجذب إليها أنظار العالم كله فى إبان العصور الأولى للميلاد. وكانت حبة الفلفل تعتبر شيئاً عزيزاً غالياً فى عهود الامبراطور هرقل والملوك البطارسة فى الروم. وكان يستعمل بكثرة ملحوظة فى الأفراح والأعياد وكانوا يحتفظونه فى المطابخ والمستشفيات والمصحات. ويعين فى القصور الملكية حارس خاص لمخزن الفلافل بالنظر إلى ندرتها وأهميتها فى الأغراض العلاجية.

وجاء ذكر الفلفل فى كتب بقراط وفى رسائل الطب «لفلسسين». وكان الفلفل يقدم هدية للفاتحين فى عهد قدماء الرومان. وله مكانة خاصة فى كل المعاهدات والأحلاف التى كانت تعقد فى تلك العهود. ولهذا كله غلا سعره وعلا قدره! وقيل إن الملك «حوغارت» قد أعطى كمية من الفلفل بمبلغ مائة ألف دينار إلى قائد القوات الرومية على سبيل الرشوة فى حرب وقعت بين

«جوغارت» وبين امبراطور الروم. وهذه الواقعة كانت فى عام ١١٨ قبل الميلاد.

وكان العلامة المشهور پلينى يستهزأ طمع الروم وجشعهم فى شأن الفلفل فى مقالاته التاريخيه ويقول: «إن الفلفل لا يحمل أية مزية حيث تجعله معدودا ضمن الحبوب الغذائيـة، ولا تحتوى على أية خصوصية تجعله من المحصولات الرئيسية ولكن له حراقة تساعد على فتح شهية الأكل الكاذبة. وعلى كل أصبح الرومان الآن مستميتين فى طعم الفلفل وحراقته ويضحون بكل رخيص وغال فى سبيل الحصول عليه بقدر المستطاع».

وأبدى كثير من المؤرخين الكبار دهشتهم البالغة عن تنافس الممالك العظمى وتقاتلها فى سبيل السيطرة على أسواق الفلفل ومراكزه وحازت مليبار كل شهرة وتقدير فى آفاق الدنيا بفضل فلفلها وحديدها وتوابلها العديدة. وفى الوقت نفسه كان توطد الروابط التجارية مع بلاد الصين وغيرها من الجزر الشرقية.

وأما مليبـار فكانت تعرف بأسماء عـديدة قبل أن تشتهر بهذا الاسم بفضل مؤرخى العرب. وكان «پلينى» من أشهر المؤرخين الروميين الذين كتبوا عن مليبار وعاداتها وطبائعها الجغرافية ومراكزها التجارية والزراعية بفحص دقيق وبحث عميق. ويليـه المؤرخ المعروف دولامى. وجاء ذكر مدينة مسريسى (كدنغلور) عاصمة مليبـار التجارية والسياسية فى ذاك الوقت بأكثر من عشرة أسماء مختلفة أو متقاربة. وفى الأساطير التاملية أسماء منسوبة إلى الأجانب الذين كان لهم ارتباط ما بتلك المدن أو القرى. وصرح پلينى بنفسه بأن مدينة مسرى كانت محط أنظار تجار الرومان.

وكذلك ذكر فى التواريخ القديمة بلد باسم «آفر». ومعناه البلد الذى يستخرج منه الذهب. ولم يبت المؤرخون الجدد فى موقع ذلك البلد القديم، ولكن قيل إن الذهب كان يستخرج من بلدة نلنبور وما حواليها. ويدل على هذا التكهن

ترابها الممزوج بمواد الذهب. وكذلك كانت تصدر من غابات نلنپور أخشاب من أشجار الساج المشهورة إلى الخارج. ولا تزال مركزاً رئيسيا لتجارة الخشب فى ربوع جنوب الهند. ولعل مدينة بيپور التى تقع على مقربة من نلنپور هى المراد بـ «آفر» التى أتى ذكرها فى كتب التاريخ القديمة. ثم تغيرت وتقلبت حسب تطورات الزمن حتى أصبحت الآن «بيپور».

وكانت تعرف پتلايى باسم هترنى. وكتب المؤرخ دولامى عن المراكز الصغيرة المجاورة لمدينة كدنغلور عاصمة «چيرمان پرمال» مثل كروزا، وكوريارا، وسمى وغيرها. ولا نستطيع أن نحدد مواقع هذه المدن تحديدا قاطعا فى الوقت الحاضر، اللهم إلا التكهن بدلالات الحروف ومدلولات الوقائع إلى حد ما. والسبيل الوحيد لحل هذه المشكلة العويصة هو الوقوف على جغرافية البلاد وحالتها اللغوية فى تلك العصور.

﴿ اليهود فى مليبار ﴾

وقد ارتبط تاريخ مليبار (كيرله) ارتباطا وثيقا بثلاثة زعماء من رجال الدين يمثلون الأديان الثلاثة السماويه المشهورة. وهم:

١ — جوزف ربان الزعيم اليهودى.
٢ — القديس توماس المبشر المسيحى المعروف.
٣ — مالك بن دينار الداعى الاسلامى الكبير.

وأصبح هؤلاء الزعماء الكبار جزءاً متمما لتاريخ كيرله. فحيثما نعبر بكلمة «كيرله» فنشمل على ولاية مليبار وإمارتى ترافنكور وكوشين. وأما وصول هؤلاء الزعماء الدينيين إلى مليبار فأحدث تغيراً شاملا فى عاداتها وتقاليدها وطقوسها ومراسمها المتبعة من عهود بالغة فى القدم. واستطاع هؤلاء المبشرون ومن تبعهم ما لم يستطع إليه التجار والسواح الأجانب فى تلك البقعة من تأثير وتغيير فى

شتى مرافق الحياة. أما مليبار فوسعت صدرها لكل ما يرد إليها من ثقافات عديدة وعادات غريبة عنها، وأفسحت رحبها للوافدين إليها من كل فج عميق بصرف النظر عن الاختلافات الدينية واللغوية واللونية والجنسية. فوجدت تلك الثقافات أرضاً خصبة فى ربوعها لتنمى ولترعرع، وتفتحت زهورها وأثمرت ثمارها اليانعة حتى أصبحت الآن مستقرة جذورها ومتشعبة فروعها.

ومن هنا أصبحت كيرله (مليبار) مطهراً عاما لأديان مختلفة، ومركزاً هاما لثقافات متعددة، ومنظرا رائعا لعادات وطقوس شتى. يقول بعض المؤرخين: إن اليهود بدؤا يهاجرون إلى سواحل مليبار، فى عهد سليمان عليه السلام، بعد انهيار مدينة يورشلم. وأول بقعة وصل إليها اليهود فى ربوع مليبار هى مدينة كدنغلور عاصمة مملكة چيرمان پرمال. ومع وجود اختلاف فى الرأى بين المؤرخين حول تفاصيل قدوم اليهود وتوطنهم فى مليبار اتفقوا على ما كان لهم نفوذ واسع فى البلاد فى شتى المرافق العامة والخاصة.

وعد المؤرخين التونسيين أن يهود مليبار هم من نسل اليهود المطرودين من تونس فى القرن الخامس، بينما يقول المؤرخون الاسبان إنهم من أولاد اليهود الذين أخذوا إلى بابل. وعلى كل كان اليهود يستوطنون فى أنحاء مليبار قبل وقوع الغارات على يورشلم فى عام ٧٠ للميلاد. وتحدث الشعراء اليهود مثل إبراهيم بن إسراء والشاعر هلوى عن قدوم اليهود إلى مليبار وتبشيرهم بالدين اليهودى هناك فى أشعارهم وقصائدهم. وكان جوزف ربان من أعظم زعماء يهود كيرله. وجاء ذكره فى الأغانى الشعبية اليهودية وفى أدعية اليهود الكثيرة. وكانت لهم مستعمرات خاصة فى عدة أمكنة مثل چينمنغلم وكدنغلور وكوتشين وشرى كنڈاپرم.

وقد تسرب الوهن والضعف إلى كيان الأمة اليهودية فى مليبار حينما بدأ الشقاق والنزاع فيما بينهم حول الوراثة، وتبعه تدفق البرتغاليين إلى مليبار وتوسع

نفوذهم فى ميدانى التجارة والسياسة. وانهارت قوة اليهود فى كيرله، ولكنهم لا يزالون يحافظون على تراثهم القديم الذى شيده جوزف ربان ويتمسكون بالبقية الباقية من آثار نفوذهم العابر. ومما هو جدير بالذكر أن يهود كيرله لم يقوموا بالتبشير الدينى كما قام به المسيحيون والمسلمون. ولعله من الأسباب الرئيسية لضآلة عددهم فى البلاد المليبارية وتقلص نفوذهم فى مرافق الحياة الشعبية. وها هم الآن بدؤا يسافرون إلى إسرائيل بعد أن لازموا أرض الهند مئات السنين!

﴿ المسيحية فى مليبار ﴾

يوافق جمهور المؤرخين على أن المسيحية قد تطرقت إلى سواحل جنوب الهند سيما بلاد كيرله، ترافنكور، كوشين وولاية مليبار فى القرن الأول للميلاد. والذى حمل مشعل الدعوة المسيحية إلى مليبار لأول مرة هو القديس توماس. وكان القديس توماس من حوارى السيد المسيح الاثنى عشر. وكان يعرف أيضا باسم توماس سليحا.

وصل القديس إلى أراضى مليبار فى عام ٥٢ بعد الميلاد، فواصل تبشيره للدين المسيحى فى طول البلاد وعرضها. وأول مدينة حل بها توماس هى مدينة كدنغلور عاصمة چيرمان پرمال. وأصبح «القديس» محل تكريم وتقدير من جانب الملك. واعتنقت عدة قبائل معروفة الدين المسيحى، ثم بنى القديس توماس كنائس وصوامع فى مختلف الأنحاء فى جنوب مليبار مثل كدنغلور، وكولم وپاليور، وپرور، وپلى پرم، وكوتمغلم، ونلاكل وغيرها من المدن التى لا تزال مكتظة بالأمة المسيحية ومظهراً لتراثها القديم.

وكان القديس توماس قد فوض إدارة شؤون هذه الكنائس إلى كل قبيلة مستقلة ليتخفف ضغط تصريف الأعمال القومية والدينية. وبعد أن فرغ من

مهمة التبشير فى كيرله واستقرت الأمور لأتباعـــه فى ربوعها، توجه القديس إلى بلاد تامل فى مقاطعـة مدراس بجنوب الهنـد.

وقيل إنه اغتيل بأيدى أعدائه الظالمين فى بلدة ميلاپور. وتوجد مقبرة عظيمة فى ميلاپور. واختلف المواطنون المحليون فى أمر هذه المقبرة: جماعة تقول إنها مقبرة القديس توماس المبشر المسيحى المشهور، بينما تدعى طائفة أخرى بأنها مقبرة لداعية إسلامى معروف باسم تمام. وكلا الفريقين، المسلمين والمسيحيين، يحترم ويزور هذه المقبرة بدون تفريق ولا تمييز إلى وقتنا هذا.

ومع وصول القديس توماس إلى مليبار توثقت الصلات بينها وبـين الروم أكثر مما كانت فى شتى المرافق. وقيل إن ملك جزيرة وليارپاثم زار السـيد المسيح عليـه السلام فى أيام حياته ولذا حصلت الدعوة المسيحية انتشاراً مرموقا فى تلك الجزيرة بسرعة فائقـــة. وكل من انتشار الدعوة المسيحية والاتصـال بالروم منذ القدم ساعد مليـار على التعارف بتعاليم مختلفة والوقوف على ثقافات عـديدة والاطلاع على شتى العلوم والفنون. وتأثرت الحياة القومية والعادات الوطنية بكثير من تلك الثقافات الوافدة إليها من بلاد نائية بحكم الصلات الموطدة فيما بينها على مر الدهور. وفى الوقت الحاضر تكون المسيحية فى كيرله بمجموعـة قوية متكاتفـة متماسكة تشترك فى جميع مرافق الحـياة فى البلاد، ومركزها الآن ولاية ترافنكور.

﴿ رسالة من الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ملك مليبار ﴾

توجد وثائق تاريخيـــة تدل على أن الاسلام قد وصل إلى مليبار فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم. ويؤكد المؤرخ الباحث الحديث مستر بالاكيريشنا پلاى بأن محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم قد بعث الرسائل يدعو فيها إلى الاسلام،

إلى ملوك أفريقيا وإلى ملك مليبار. ويقول إن أول خطاب من الرسول العربي قد وصل إلى ملك مليبار فى عام ستمائة وثمانية وعشرين للميلاد. ويقال أن چيرمان برمال ملك كدنغلور قد زار النبى عليه الصلاة والسلام. هذا فى السابع والخمسين من عمره صلى الله عليه وسلم. وفى ذلك الزمن أيضا وصل مالك بن دينار وشرف بن مالك إلى بلاد مليبار، ونزلا فى مدينة كدنغلور ثم جابا جميع أنحاء كيرله داعيين إلى الاسلام وبانيين المساجد والمعاهد الدينية فى ربوعها، وبعد زمن قليل وصلت جماعة تبشيرية إسلامية إلى ميناء كدنغلور أيضا تحتوى على عشرة أشخاص منهم «أسود» و«مرجان». هذا فى سنة ٧٠١ م. (رحلة الملوك صفحة ٩).

وبنى مالك بن دينار أحد عشر مسجدا فى أنحاء كيرله. ودخل جم غفير من الأهالى فى دين الاسلام، سيما من طوائف المنبوذين والطبقات السفلى بعد أن عانوا كثيراً آلام التفرقة العنصرية وقاسوا عدة قرون أنواعاً من تكاليف اضطهاد الطبقات العليا، فوجدوا فى القوانين الاسلامية مساواة تامة وعدالة اجتماعية كاملة. وكانت العلاقات المستمرة بين البلاد العربية ومليبار منذ أقدم العصور لمن البواعث الفعالة لانتشار الاسلام فى أنحاء كيرله بسرعة فائقة، وترعرعه فى البلاد بخطى ثابتة. واستطاع مالك ابن دينار أن يرى بعينى رأسه فى أواخر حياته مراكز عديدة مكتظة بالمسلمين فى أرجاء مليبار.

وفى ضمن الوثائق التاريخية المحفوظة فى قصر العائلة المالكة المعروفة باسم أركل فى مدينة كنور بشمال مليبار آثار تاريخية تشهد بأن دعوة الاسلام قد ابتدأت فى بلاد مليبار فى أيام حياة النبى صلى الله عليه وسلم. ويستطيع كل من يزور مدينة كنور أن يطلع على هذه الوثائق فى قصر عبد الرحمن على راجا. ومن المؤسف أن هذه الوثائق التاريخية والآثار القديمة القيمة لم تر النور بعد. ومن

البشرى والأمل أن هناك من يحاول الآن لاخراج ما يمكن إخراجه من هذه المجموعة التاريخية الثمينة إلى دنيا النور من غياهب الظلام لتكون هدى ونوراً لعلماء البحث والتاريخ. كما أن السكرتير العام لجمعية علماء الهند قد صرح لى مرة بأنه اطلع على هذه الوثائق التاريخية المحفوظة فى قصر عبد الرحمن على راجا بكنور خلال زيارته لمليبار، وأنه يريد أن يرتب ويؤلف كتابا عن بداية الدعوة الاسلامية فى مليبار، خلال أيام حياته عليه الصلاة والسلام استناداً على هذه الوثائق وغيرها من المخطوطات المحفوظة فى ايشاتك سوسايٹى ليبريرى بكلكته. ولحضرته كتاب فى اللغة الأردوية باسم «مليبار ميں إسلام» (الاسلام فى مليبار).

وبفضل هذه الثقافات الوافدة إليها استطاعت مليبار أن توسع آفاقها الثقافية والاجتماعية والدينية بحكم سعة صدرها وكرم وفادتها. فخرجت من حدودها الضيقة ودائرتها المحدودة إلى ميدان الثقافات العديدة والتقاليد المختلفه. وحازت مركزاً دوليا بالنسبة إلى الأديان والثقافات ولا تزال تحتفظ بهذا المركز الخطير إلى وقتنا هذا. ويعيش فى كنفها الآن كل الأديان الوافدة إليها وجميع الطوائف المتوطنة فى سلام ووئام تامين!

﴿ النقود التاريخية فى مليبار ﴾

النقود التاريخية لها قيمة عظمى، ومكانة كبرى فى البحث التاريخى والوصول إلى أنباء الماضى، وأخبار الأمم السالفة كما للتماثيل، والمنحوتات، والمخطوطات سواء بسواء. ونرى من خلالها أنباء الامبراطوريات المهارة وآثارها الثقافية. وتنير الطريق إلى اكتشاف بقايا الآثار القديمة والعثور على تراث الأمم الماضية والمعالم التاريخية للحوادث الكبرى التى غيرت مجرى التاريخ البشرى. وأول من بدأ سك النقود واستعملها هم القدماء اليونانيون. وكان ملك بابل المعروف باسم

تابانيسيس يحتفظ فى مكتبته نقود الملوك القدماء. وكان من هواة جمع النقود الأثرية فوق أن كان مؤرخاً كبيراً. وهو الذى اكتشف تاريخ اعتلاء الملك اليونانى المشهور «سارغون» على عرشه بعد أن كان مثار مناقشات عديدة واختلافات شديدة بين المؤرخين والباحثين. وكان ذلك الاكتشاف بطريق النقود التاريخية التى كان يحفظها فى مكتبة قصره! ويتمكن علماء الآثار أن يعثروا على نقود تاريخيـــة بطريق الحفر والتنقيب فى عواصم الأمم السالفة مثل أثينا، ومصر، وبابل، والهند وغيرها.

أما النقود التى عثر عليها فى «مصر» فى منتصف القرن الثامن عشر فأصبحت نقوشها وصورها وثائق تدل على كيفيات وأشكال حكومات قدماء المصريين. واستطاع المؤرخون الوقوف على مجريات العصور الوسطى للتاريخ البشرى والتطورات العالمية بفضل النقود الأثرية.

وأما النقود التى عثر عليها الباحثون فى «يورشليم» فهى التى ساعدت علماء الآثار على معرفة لهجات ولغات الفينيقيين وكذلك العادات والطقوس المنتشرة فى عهد استيلاء الآريين على اليونان. وكما أن النقود الأثرية التى وجدت فى حفريات هارابا وموهنجو دارو، قد فتحت دورة جديدة فى تاريخ الهند الحديثة. ومنها النقود التى تدل على ثقافات «سيندوا» التى كانت لها أدوار هامة فى خلق تاريخ الهند. وأصبحت هذه التحف التاريخية نبراسا للباحثين عن الثقافة الآرية ودورها فى صفحات تاريخ العالم عامة وتاريخ الهند خاصة. والأستاذ «كيل هون» الذى بذل مجهودات جبارة فى سبيل اكتشاف تاريخ الهند بطريق النقود التاريخية والمنحوتات الأثرية والصفائح النحاسية يقول: إن النقود القديمة لمرآة الماضى. ويحتوى شعارها وتاريخها وأرقامها على أنباء الماضى. وإنها لسان حال الأمم القديمة وحكوماتها الغابرة. وتخاطب هذه النقود لبناة المستقبل عن

أجيال العهد البائد بلسان طلق لا غموض فيـه ولا خفاء. وتحمل هذه النقود الصغيرة الأحجام فى طياتها صوراً لثقافات عظيمة وحكومات جبارة وأمم قوية التى طوتها الأزمان فى زواياها. وهذه النقود الأثرية لعمة كبرى للعصر الحديث لأنها تعطينا فكرة عامة عن الحروب والسلم والنزاع والنضال فى مختلف الأزمنة والأمكنة بين الأمم والشعوب. ولا يجد الباحث العلمى شيئا أقوى وأحسن من هـذه النقود لتحقيق أمنيته والوصول إلى مأربه الخاص. ويجب أن يجد علم النقود مكانته اللائقة فى علم التاريخ ولدى المؤرخين».

ويقول كرنل ثاذ، العلامة فى تاريخ النقود: «إن النقود العشرية المصنوعة من النحاس كانت منتشرة فى الهـند قبل عهد الامبراطور أشوكا». وقد عثر علماء الآثار على النقود التاريخية الجارية فى عهدى أشوكا وچـندرگتا. وكذلك عثروا على النقود المشهورة فى جنوب الهـند منذ القرن الثالث للميلاد. ونقشت عليها الحروف البرهمية. واستطاع المؤرخون بفضل هذه النقود أن يكتشفوا عدة أمور عن الثقافتين: الآرية والدراودية اللتين لهما صفحات مليئة بالأحداث العظام والتطورات الهامة فى تاريخ الهند القديمة. واكتشموا أيضاً كيفيات الحكم وأنواع الحكومات القائمة فى شتى أنحاء الهند خلال الفترات الماضية بين القرن الرابع قبل الميلاد والثالث بعـده، هذا بواسطة حوالى ثلثمائة عملة تاريخية (Historical Coins) عثروا عليها فى مختلف أنحاء الهند.

وبدأ الهنود البحث عن النقود الأثرية فى منتصف القرن الثامن عشر الميلادى. وكان من ضمن الآثار التاريخية التى اكتشفت فى عاصمة كيرله مسريس أى مدينة كدنغلور قبل سبعة قرون عدد من النقود السائرة فى أنحاء البلاد فى العصور الغابرة. وأهدى ملك كدنغلور نقوداً أثرية نقشت عليها الحروف الرومية إلى الأجانب الكبار على سبيل التكريم. وساعدت المؤرخين مساعدة كبيرة على

التكهن عن عهود الملوك الهنود تلك النقود الأثرية المكتشفة فى راجپوتانا التى يبلغ عددها أكثر من ألفى قطعـــة ذهبية. وإنما عرفت العظمة المدفونة تحت التراب والهيبة المحمية تحت الأنقاص بعد نبش القبور لعظماء الملوك وفحص القلاع لجبـابرة الحكام فى بنغال، وراجپوتانا، وپاتنا وغيرها من المدن التى كانت عواصم الأباطرة العظام. وتنبه كثير من الحكام الانجليز إلى أهمية هذه النقود التاريخية وبدؤا يدرسونها بدقة وتعمق للوصول إلى ما أخفته الأيام من عبر وعظات وسير وحكم تنير الطريق إلى بناء مستقبل موطد الأركان ومدعم الأساس. وأدرك المؤرخون الكبار مثل كنعهام وميكولاى بأن النقود الأثريـة لهى مفتاح البحث التاريخى ونبراس علماء التاريخ!

واهتم آر ڈى. بانرجى فى بحث النقود التاريخية. واكتشف عظمة الهند التى حكمها موهن‌جودارو وتيكسيلا وقدم أمام العالم كله ثقافات الهند القديمة وحضاراتها العريقة وتقاليدها القيمة فى مختلف الميادين مستدلا بنقوش تلك النقود الأثريـة ومستنيراً بتلك التوقيعات والحروف المسجلة فى جبانها. وقال: «إن بلادنا الهنـد بلاد الساسة المهرة والعلماء المفكرين. ولها حضارة تفوق حضارات جاراتهـا وشقيقاتها من البلدان والأمم».

وبذل القـائمون بالاشراف على الهيئة الأسيوية الملكية مجهودات جبارة فى النهوض بقسم النقود الأثرية الهندية. وقام «تيو بولڈ» بدراسة المعادن التى ضربت بها النقود ومزاياها وخاصيتها بينما اهتم «ولسن اسمت» فى دراسة طبيعة نقوشها وحروفها. وقضى العالم الأثرى سپونر عدة سنوات فى وضع قائمة خاصة منظمة للنقود التاريخية التى عثر عليها فى نواحى راجپوتانا وتكشيلا. والشىء الذى أتعب جميع المؤرخين الباحثين هو تحديد التواريخ بدقة ووضوح. وأما العثور على بضعة نقود مؤرخة فألقى النور على عدة قرون فى تاريخ الهند بعد أن كانت فى غياهب

الظلام. وقام دوركا پرشاد ورڈى بمساعى جليلة فى سبيل اكتشاف تواريخ ملوك پلوا وحكوماتهم وعاداتهم وطقوسهم من هوامش النقود الأثرية. ولها صفحات مجيدة فى هـذا المضمار الخطير. ولا يزال العلماء الأثريون يحاولون ليكتشفوا مزيدا من المعلومات من تلك المجموعة القيمة من النقود التى عثرت عليها فى تيكشيلا، وليفهموا تلك الحروف والنقوش التى عليها. ومن ضمن تلك المجموعة نقود على شكل مربع وعلى جانب منها حروف رومية قديمة وعلى الآخر حروف اللغة الدراويدية السائدة فى جنوب الهند فى الزمن القديم. ومنها استنبط بعض المؤرخين بأنه كانت فى الهـند حضارة مزدوجة وثقافة مخلوطة فى تلك الأيام ثم تطورت وتقلبت حسب تقلبات الزمن. وقال المؤرخون الكبار: كوڈيليان، وأغسطين، وپانني فى كتبهم: إن النقود الرسمية كانت شائعة فى الهند منذ عهود يجورويد (Yegurveda). وقد حاول الحكام نقش صور ثلاثة وثلاثين من الآلهة التى جاء ذكرها فى رجوويد على صفحاتها. وكذلك جاء ذكر علم النقود وفنها فى الملاحم الهندية القديمة مثل أرتهشاسترم، ورويشدم، وراحترمگى، وأشتادهايم وغيرها من الملاحم الهندية المشهورة. ويتضح من الكتب العلمية بأن ضرب النقود كان شائعا فى الهند منذ عهود بالغة فى القدم.

ويعرف فى اللغة الپالية نوع من النقود باسم كاشى پم. ويستعمل الباحثون الجدد النقود المعروفة باسم «پنچ ماركس» فى بحوثهم التاريخية. ويهتم الأثريون فى جميع بقاع الأرض بهذا الصنف من النقود. وكان الملوك فى جنوب الهند يهتمون جداً بضرب النقود الحكومية فى عدة أشكال. واستعملوا الفضة والنحاس لهذا الغرض بتوسع بالغ. وتحدث الدكتور ج. ن. سركار عن مساهمة نقود جنوب الهند فى فن النقود والبحث التاريخى حديثا مستوعباً فى محاضرات ألقاها فى دراسة النقود الهندية القديمة.

وأما النقود الحديدة فكانت تأتى إلى الأسواق العامة فى المناسبات الخاصة فى عهد ملوك «پلوا» خصوصاً بمناسبة الاعتلاء على العرش والتتويج لملك جديد. وكانت لقبيلة شاحس وقبيلة هوس يد طولى فى نشر النقود العديدة.

ومن أهم المراكز لضرب النقود، مدينتا مگدها وپثالى پترا. وتسربت تطورات بسيطة إلى هيئات النقود وأشكالها بعد الفتح البوذى. وكذلك أدخل الامبراطور أشوكا عدة تعديلات فى النقود لتسهيل التبادل الخارجى مع البلاد التى كانت تتاجر مع الهند.

وانتشرت الدنانير فى جنوب الهند منذ قدوم الفرس إليه والتجارة فيه، كما انتشرت النقود الرومية مع مجىء التجار الروميين إليه. فيختلف ختم الدولة على النقود باختلاف صور الحكم فيها وعقلية الحكام وتقاليدهم. ومعظم النقود فى ذلك الزمن كان ممزوجاً من عدة معادن. وكانت للوزن قيمة تذكر أكثر من جمال الشكل وحسن المنظر. وأصبح كل هذا وذاك مصدراً للدخول إلى خفايا تلك الدول وخباياها، كما أنه معيار قيم للوقوف على مـــدى حضاراتهـا، ومدنياتها، وعصورها، وبيئاتها. ويوافق المؤرخ الأثرى الكبير بهناركر على رأى الدكتور سركار فى هذه المسألة موافقة كاملة

ويوجد نقش التاريخ فى ناحية، وشعار الدولة فى ناحية أخرى فى جميع النقود الشائعة فى عهد كنشك. وكانت لجـان خاصة فى عهود ملوك گپتا تقوم بمهمة ضرب النقود وتحديد أشكالها. وتحتوى تلك اللجان على أشخاص بارزين من الساسة والأدباء والصانعين، لأنها أخطر اللجان فى تقرير مصير اقتصاديات البلاد.

وكانت النقود التى شاعت فى عصر فلگنامترن من المعادن التى لا تتكسر أبداً ولا يعلوها البلى والتلف بطول الأمد وقدم الأزمان. وتوجد صور الثور

والأشجـار فى النقود المكتشفة فى مقاطعـة بنجاب وشمال الولايات الحـدودية. ويظهر من النقود الأثريـة أن أيام حكم چنـدر گبتا كانت أيام الغنى والرخاء فى البلاد كلها. وصرب ستون نوعاً من النقود الذهبـية فى ذلك العهد فى أشكال مختلفة ومقاييس متعددة. ونقشت فى إحدى نواحى تلك النقود علامات الثرى والهناء. وأشاع وشنو گپتا نقوداً تحمل صورة قرينته المحبوبة وإسمها. ودخلت تغيرات عـديدة فى النقود الهنـدية أيام حروب حنكيز خان. وصرت النقود بقطع من الحديد الخفيفة. ونقشت مناظر الأنهار الجارية، وحرب الفرسان على النقود التى صرت فى عهـد فتح هونس مع أنها كانت خفيفة الأوزان.

﴿ النقود فى عهد المسلمين فى الهند ﴾

وفى عهد حكم المسلمين انتشرت فى الهند نقود صرت على الأشكال المعروفـة فى بلاد الشرق الأوسط. ثم بدأت الهند نفسها تضرب نقودها على ذلك الطراز. وتقـدمت الهند تقدما ملحوظا فى هذا الميـدان فى عهد السلطانة رضية. وعثر الأثريون على عدة أنواع من النقود الرضية، ومن ضمنها نقود ذهبية خالصـة. وكانوا يستعملون النقود فى نشر دعوة التوحيد، وفى ناحية منها كتبت وصايا السلطانة. ووزع السلطان محمود غزنوى حوالى أربعة عشر نوعاً من النقود الرسمية، وكتبت فى ناحيـة منها ألفاظ ما معناها الله أحد، والدين لا يذكرون الله القوى المتين هم الخاسرون» — وأتبع الامبراطور همايون، والامبراطور شاهجهان النظم الفارسية فى ضرب النقود وتحديد أشكالها واختيار كيمياتها. ونحت الامبراطور أكبر شعار مذهبه الجديد «دين إلاهى» أى الدين الالهى على نقود دولته. وكان الامبراطور جهانگير يهدى نقوده التى تحمل توقيعه الخاص إلى الأمراء وأعيان المملكة. وقام كل واحـد من الحكام المغول بالنهوض بمصلحة النقود الحكومية، وأدخلوا تعـديلات خاصة فى هيئاتها وطرازها. إن النقود التى ضربت فى عهد المغول

لمن أغلى النقود قيمة، وأحسنها شكلا، وأروعها منظراً فى تاريخ النقود الهندية. واكتشفت عدة أنواع من النقود المغولية يبلغ تعدادها أكثر من ألف نوع.

ولمستر كننغهام بيان رائع فى كتابه (Account of Mugal India) عن ذاك العهد المغولى الذى له دور خطير فى تغيير مجرى التاريخ الهندى فيقول: «ابتدأ العصر الذهبى فى الهند بعد أشوكا فى أيام حكام المغول. ونرى قوة خيال المغول ومقدرتهم الفنية من خلال الأحجار الأثرية والمعادن المنقوشة والأبنية الفنية التى تبهر العقول، وتبهج القلوب. وإذا استثنينا بعض الأخطاء الشخصية من بعض السلاطين المغول نجد أن عصرهم فى الهند لهو العصر الذهبى فى تاريخها المجيد. وحكمهم لمن أعدل الأحكام وأنصعها وأخلدها أثراً فى صفحات التاريخ الهندى. وتدل شعائر نقودهم والنقوش المنحوتة فيها على مظاهر الحب الخالص والمودة الصادقة والاخلاص المتين. كما أن المجلس العلمى لامبراطور أكبر، ومجلس الدولة لجهانگير كان يهتم اهتماماً بالغا فى مسألة نقود الدولة ورسومها وأشكالها وأحدامها وتتجلى من صفحات هذه النقود موهبة المغول الفنية وشغفهم بالصور الجميلة وجمال الطبيعة. وكتبوا وصايا الحق والعدل والصدق فى النقود باللغة الفارسية والسنسكرتية، وأثبتوا شعار المحبة والمساواة فى حسناتها فى هاتين اللغتين ونرى الآن قلوب السلاطين المغول الصافية، وصدورهم الواسعة، وعقولهم المتنورة من خلال هذه النقود الأثرية».

أما النقود الأجنبية فلها انتشار واسع فى بلاد مليبار منذ القدم، لأن العملة الأجنبية كانت تستعمل للتبادل التجارى بين مليبار والبلاد الخارجية. فتطرقت النقود الرومية، والصينية، والتونسية، والفارسية إلى المراكز التجارية فى كيرله مليبار. ويتضح هذا جيداً من كتابات السواح الصينيين والمؤرخين البرتغاليين. ويسجل المؤرخ المشهور الايطالى پيترو ذيلاولى» (١٦٢٧ — ١٦١٤) فى مذكرات رحلاته

بأن النقود الرومية، والعربيـة، والصينية كانت شائعة ومستعملة بتوسع كـبير فى سواحل الهند الغربية.

أما السلطان لارى الذى كان يحكم بـلاد الشرق الأوسط ١٥٣٢م. أرسل النقود اللاريـة للأغراض التجاريـة إلى جنوب الهـد وجزيرة سيلان وحاول نشرها فى تلك البقاع. والنقود اللارية هى التى كانت تقود الحركات التحارية فى دلك الزمن . وفى أيام عارات البرتغاليين كانت النقود اللارية تستعمل بكثرة فى موانئ كاليكوت وكوتشين وفى الأسواق التحارية الكبيرة. واستعملها أيضا البرتعاليون فى التادل التحارى

وأما النقود التى كانت شائعة فى ولايـة ترافـكور بحوب الهد إلى عهد قريب باسم چكرم فهى صورة مشوهة لنقود لارى. إد هى لا تختلف منها إلا اختلافا سيطا يتعلق بالرمور والحروف. وللعائلات المالكة فى حوب الهد مثل چولا، وپانڈيا نقود خاصـة. وفيها صور الفيل، والسمك، والنمر، والقوس، والترس وغيرها. ووصلت إلى مليبار نقود سهاليـة خفيفة الوزن خلال أعوام ما بـين ٨٥٠ — ٩٦٠. وفى نفس الوقت كانت تجرى فى ترافـكور نقود خاصة مثل چـدرا كاش، وإيزوركاش وغـيرها. وفى ولايـة مليبار كانت تلـكى پتن، وسلطان ولى، ورروماشلى وغيرها من النقود الشائعة — (مليار للدكتور شمس الله قادرى). وجاء دكر هذه النقود فى الأغانى الشعبية والقصص المحلية.

وبدأت النقود الانجليزية تنتشر فى الهد شيئا فشيئاً منذ تأسيس « شركة الهند الشرقيـــة ». وأرل أمراء الولايات نقوداً خاصة خفيفة الأوزان لمبالغ صغيرة إلى جانب النقود الانجليزيـة. واستطاع الانجليز توحيد النقود نوعاً ما، ولـكن لم يدخلوا تعديلات تذكر فى تلك النقود.

وبعد أن تحررت الهند من نير الاستعمار الأجنبى، تطرقت تعديلات خاصة

إلى النقود الحكومية. وها هي الآن تريد الهند تنفيذ النظام العشرى فى النقود الرسمية أسوة بالنقود السائرة فى البلدان الأخرى، وتسهيلا للعاملات الاقتصادية، وفوق هذا وذاك أن هذا النظام العشرى ليزيل عن عامة الشعب التكاليف التى يتحملها فى الحسابات وفى التبادل التجارى خصوصا مع البلاد الخارجية والعملة الأجنبية.

« الديانة البوذية فى مليبار »

إن لمليبار (كيرله) صفحات مجيدة فى تاريخ الأديان المختلفة والحضارات المتعددة. وكانت تجلس يوما من الأيام الماضية على عرش الزعامة الدينية فى القارة الهندية كلها. وانتشرت الديانة البوذية فى أنحائها فى عصورها الأولى، وثبتت أقدامها، وترعرعت غصونها، وأثمرت ثمارها فى عهد الامبراطور العظيم «أشوكا».

ويظهر من المنحوتات والأثريات التى يرجع عهدها إلى عصر الامبراطور «أشوكا» وكذلك من الوثائق التاريخية عن أيام حكم ملوك «چولا» أن الدين البوذى كان قد انتشر انتشاراً مرموقا فى سواحل الهند الغربية. وكان له نفوذ واسع فى تلك المناطق. ويقول المؤرخ ك أ. ن. شاسترى: (K A.N Shastari) كانت مدينة «ناگپٹنم» شرقاً ومدينة «سرى مولولاسم» غربا مركزاً للثقافة البوذية فى عهود ملوك «چولا» فى جنوب الهند. وكانت الأصول البوذية متأصلة فى قلوب الناس.

واستطاع الباحثون أن يكتشفوا مدى انتشار البوذية فى الهند من الأضواء التى ألقتها تلك التماثيل والأثريات التى عثروا عليها فى أماكن مختلفة من بلاد «كوتلاويدى» و «بالى پاليم» و «ناگپٹنم» وغيرها فى السنين الأخيرة. ومما هو خليق بالذكر بأن مليبار أقدم المناطق الهندية ارتباطاً بالبلاد الخارجية. وبذلك وغيره من الأسباب انتشرت البوذية فى مليبار قبل أن تشق طريقها إلى سائر أنحاء

بلاد تامل. ووجدت فيها أرضا خصبة لترعرع فى أكنافها. وشجعت موانئ مليبار التى وثقت علاقاتها مع الجزر الشرقية وغيرها من مواقعها الممتازة المبشرين البوذيين للحضور إلى مليبار جماعات وفرادى. وهكذا أصبحت البودية دين الأغلبية الساحقة فى ربوع مليبار، ووجدت فرصة مواتية للقيام بتبشير واسع النطاق فى طول البلاد وعرضها.

وتجرى على ألسنة الناس أساطير عديدة وحكايات عجيبة عن انتشار البوذية فى كيرله. ومنها أسطورة يلعب بها خيال المؤرخ، وإن لم يكن لها ثبوت من الوقائع التاريخية، تقول الاسطورة: كانت سيدة جميلة تعرف بـ «مالى» اعتنقت البودية، فقابلت يوما ناسكا بوذيا جميل الوجه، حسن المظر، ذا خلق كريم. فأحبته وطلبت منه الزواج بها. فقبل الناسك ذلك الطلب. فولد منها ولد ذكى لطيف. وفى نفس اليوم ولد طفل جميل فى العائلة الملكية المشهورة بـ «كولاترى». واستطاعت «مالى» بذكائها الخارق وحيلتها البارعة أن تحصل على ذلك الطفل الأمير وتربى فى احضانها، وكذلك تمكنت من دس طفلها من الناسك فى العائلة الملكية. فبدأ ولدها الذى تربى فى القصور الملكية بالدعوة إلى الدين البوذى، وقام بتبشير واسع النطاق بحكم نفوذه وشهرة اسمه فى أنحاء البلاد، ليثق الناس بأنه الأمير الملكى. وكان هـذا الحدث تحولا ميموناً فى تاريخ الدين البوذى. وبهذا فتحت طرق جديدة أمام الثقافة البودية فى أرجاء مليبار.

والذى تستهدف إليـه هذه الاسطورة هو الاثبات بأن أميرا من الأمراء الحاكمين فى البلاد كان يقوم بالدعوة إلى البودية وكانت له يد طولى فى انتشار هذه الثقافة فى تلك البقاع.

وتقول الكتب التاريخية بأن كثيراً من عائلة «بيرمال» اعتنق الدين البوذى. وكان فى مقدمتهم «بالى بانا بيرمال». ولكن اختلف المؤرخون فى تحديد تاريخ

حياته. وقال المؤرخ العالمى المعروف «ميكل سيمال» إن بداية حكم «بيرمال» كانت فى عام ٤٤٤ م. وقيل إن «پالى نانا پيرمال» هو الملك المشهور «ولاربان» الأول. وكان عهده فى ٦٥٧ م وعلى هذا الرأى فيكون آخر زعيم للديانة البوذية فى «كيرله». ولا شك أن البوذية انتشرت فى أنحاء مليبار فى عهد الامبراطور أشوكا بدليل المنحوتات الأثرية والتماثيل التاريخية. وكذلك كان «پالى نانا پيرمال» يسدى خدمات جليلة ويقوم بمساعى جميلة فى نشر الثقافة البوذية فى كيرله.

وجاءت قصة لطيفة فى تاريخ كيرله حول تبشير «پالى نانا پيرمال» بالدعوة البوذية جاء پالى نانا پيرمال من الخارج بدعوة من براهمة كيرله، فكان أحد الضيوف عندهم. ومرة جرت مناظرة دينية بينه وبين النساك البوذيين فى قصر البراهمة فى بلدة اللور. فأحب دين البوذية وقام بالدعوة إليها بحماس بالغ. وحاول أيضا أن يدعو هؤلاء البراهمة إلى اعتناق البوذية، فغضبوا عليه، وتركوه، وأقاموا بمكان بعيد عنه، وتآمروا على قتله أو نفيه من البلاد. فتولى بعض البراهمة الأجانب هذه المهمة وجرت مناظرة علمية بينه وبين طائفة من هؤلاء البراهمة الأجانب، فهزم فيها پالى نانا پيرمال فقطعوا لسانه ونفوه من البلاد.

وهناك أساطير أخرى عديدة تفوق هذه الأسطورة غرابة وطرافة، وملئت بها الكتب القديمة الخرافية مثل «كيرله اليتى» و «كيرله پاژاما» و «كيرله مهاليم» وغيرها. وكانت البوذية فى السنين الأخيرة لعهدها فى مليبار تعانى أنواعاً من الظلم والعدوان بأيدى زعماء البراهمة الغلاة، وكانت تقاسى الاضطهاد والكراهية من رجال الدين البراهمة فى شتى الميادين.

واختفت أنوار الثقافة البوذية فى كيرله فى غياهب الظلم والاضطهاد قام به «البراهمة» على أشعتها الكاشفة. فيضطر الباحث إلى أن يسبر أعماق هذه الثقافة النيرة من خلال صفحات التاريخ للوصول إلى الحقيقة الواقعة عن الحضارة

البوذية فى مليبار، مع أن معظم نواحيهـا الطيبة مطويـة تحت أنقاض الأساطير والأقاصيص المختلفـة. وانتقل پالى بانا پيرمال من مدينة تروانجى كولم إلى نلنبور فى أيام فتوحات البراهمة وسيطرتهم على مليبار. وأقام بصفة موقتة على مرتفعات «أونترت» على مقربة من ويباناڈ. وبفضل المساعى التى قام بها پالى بانا پـيرمال وبالنشاط المنقطع النظير الذى أبداه فى سبيل الدعوة إلى المذهب البودى، دخل مئات الألوف من الناس إلى هذا الدين، وبنيت عشرات المعابد البوذية، وفتحت عدة مدارس ومستشفيات وملاجئ الفقراء والمساكين فى طول البلاد وعرضهـا باسم پيرمال هذا.

وتعرف الآن المساجد للمسلمين والـكنائس للنصارى باسم الملك پالى فى أنحاء مليبار. ويتكهن بعض المؤرخين بأن هذه التسمية قد جاءت بناء على فرض أن هذه المساجد والـكنائس مبنية على أنقاض المعابد البودية التى تهدمت أو هدمت بأيدى البراهمه أو من لف لفهم من أعداء تلك الثقافة أو أصبحت خاوية مهجورة بانقراض أهلها وأتباعها بمرور الزمن. والدليل على هـذا التكهن أن المعابد البوذية كانت تعرف باسم پالى بانالبم (بيت پالى بانا). وتوجد على جدران المعبد فى چترال وأعمدتها نقوش الديانة الجينية. ويتضح منها أن الجينية لعلها انتشرت فى كيرله قبل البودية.

وأيضـا اختلف المؤرخون فى تعيين القبيلة الأولى التى اعتنقت البوذية فى كيرله. ويقول البعض إن أول من اعتنقها هو الحاكم ايشانان الأول. وعنـد الآخر هى قبيلة «إلانكووڈى». وتقول طائفة ثالثة إن أولى القبائل التى دخلت فيها هى «اتشكهايا پاترم» فى مدينة مهوديپرم. وكهوف جبل مرتوا ونقوش معبـد چترال فى مدينة نيمت، تشهد على عظمة المعابد البوذية والمعاهد العلمية التى أسسها زعماؤها الكبار، وعلى دورها الذى لعبته فى الميادين الثقافية والعلمية والدينيـــة

والاجتماعية فى البلاد. وفى هذه الجهات كلها نجد آثارا جينية إلى جانب الآثار البوذية. وتتجلى آثار الفن البوذى ومظاهر الحضارة البوذية على جدران المساجد والكنائس القديمة وعلى قواعدها.

وحدثت اضطرابات خطيرة بين الهندوس والبوذيين فى عدة مناسبات فى تاريخ الهند القديم. وانقلبت أو تطورت عدة أصنام للبوذية والجينية إلى شكل الأصنام الهندوسية. وتحتوى المعابد الهندوسية فى كيرله على تماثيل لبوذا تمثل شتى مراحل حياته. وهناك تماثيل لبوذا «الأمير» ولبوذا «المتعبد» فى الغابات ولبوذا «المفكر» ويدعو الناس هـــذه التماثيل بأسماء مختلفة، مثل «وشنو» و «شاستاو» و «مذن» ويتعبدونها بطرق مختلفة. ولشاستاو فقط تماثيل عديدة فى أشكال شتى فى المعابد الهندوسية وتوجد شجرة «آل» التى تدل على بدء الالهام لبوذا أمام المعابد الهندوسية فى بلاد مليبار وهذه الشجرة تذكر الزائرين للمعابد تاريخ إلهام بوذا وحيـاته مفكراً ومتعبداً وناصحاً ومبشراً.

وكذلك توجد البقية الباقيـة من آثار الثقافـــة البوذية وحضارتها فى التماثيل المنحوتة فى صخرة كبيرة فى بلدة أيرملا بمليبار، وفى هيئة معبد تريكوڈى بمديـنة ترولا فى إمارة ترافنكور، وفى الأصنام الموجودة على ساحل «چيروا» على مقربة من المسجـــد المعروف بـ «صاحب بالى»، وفى مواقع معـبد «كلرور» فى منطقة كونايام، وفى التماثيل المهدمة على جبل «ديوگرى» بـ «ترافنكور» بجنوب الهند. وفوق هذا وذاك كانت الأصنام البوذية منصوبة بكثرة فائقة فى بلاد، شارى ملا، كولانپوڑا، مانيازاترا، أتشان كوول، ماويلى كر، كورٹى، وانجى پڑا، كورچى، كڈمالور، چيرتلا، پلورتى وغيرها من البلاد التى كانت مراكز الحضارة البوذية فى العصور الأولى للميلاد. ويظهر من الوثائق التاريخية أن هـــذه المعابد والتماثيل قد صنعت فى عهد الامبراطور أشوكا. وكذلك كانت الديانة الجينيـة

منتشرة فى تلك العهود فى أنحاء مليبار. وأخذت هاتان الديانتان البودية والجينية تشقان طريقهما جنبا بجنب فى زمن واحد وفى بقعة واحدة.

وصارت تلك المعابد المشهورة محلا لأساطير متعددة تجرى على ألسنة عامة الناس. ويعتقد البعض أن «شاستاو» الموجود فى معبد شارى ملا هو البودا. وجاء فى ملحمة «أماراكوشام» بأن شاستاو مرادف لكلمة بوذا، وهذا الرأى يؤيد الاعتقاد المذكور. وكذلك جاء ذكر بودا فى تراتيل «هارى هارا سوتن». وكانت المؤسسات العلمية والمدارس والمستشفيات منتشرة فى أنحاء البلاد أيام أبهة البوذية فى كيرله. وكلها كانت تجرى مجاناً بدون مقابل. وأوقف الأمراء والأغنياء عدة أفدنة من الأراضى والعمارات والممتلكات فى سبيل مصاريف هذه المؤسسات. ومعظمها كانت بجوار المعابد أو تحت إشراف القائمين بشؤون المعابد. وكانت المستشفيات تعرف فى تلك العصور الأولى باسم شالا. وهذا شكل مشوه لكلمة «چالا» المنتشرة فى البلاد أيام البودية. وأما النساك البوذيون فهم الذين بدؤا تأسيس المستشفيات المجانية فى كيرله لأول مرة فى التاريخ.

وإلى جانب هذه المستشفيات أسست معاهد الطلبة مع جميع التسهيلات اللازمة للاقامة والتعلم وغيرهما من وسائل المعيشة، والراحة، والمطالعة، والرياضة البدنية. ولكن أصبحت هذه المؤسسات كلها عرضة لمظالم البراهمة الكهان وغاراتهم الغاشمة. فأتلفوا المعابد البودية، والمؤسسات العلمية، والمستشفيات التى بناها البوذيون لسائر الناس بدون تمييز ولا تفريق. ويقول بعض السواح إن معابد البوذيين كانت مراكز للعلاج المجانى والكشف الطبى، وكان فى كيرله فى ذاك العهد أطباء مهرة. ولا تزال المعابد التى تعالج المرضى بكيرله فى وقتنا هذا تحتفظ بآثار الحضارة البوذية مثل معبد «گروايور» و «آدتى پرم» و «ترونعاذى» و «تكاژى» وغيرها.

وكان رجال من البوذيين القادمين من شمال الهند، تخصصوا فى فن النحت والأعمال اليدوية. وكانوا قـــدوة للاعمال الهندسية، والنحت، والفن المعمارى لأهالى كيرله. أما قبيلة ليچها فى نيبال وقبيلة آسارا فى كانڈى كوٹ فكانتا مضرب الأمثال فى الفن المعمارى فى عهد الامبراطور أشوكا. وبنيت المعابد البوذيـة فى كيرله تحت إشراف هؤلاء المهرة ووفق تصميماتهم الفنية. وأما كيرله فمدينة لهؤلاء الفنانين الذين أضافوا صفحة جديدة فى تاريخ كيرله القديم وفتحوا بابا جديدا فى عصورها الذهبية.

وكانت بداية انهيار الحضارة البوذية وقوتها الفعالة فى كدنغلور عاصمة كيرله فى ذلك العهد. فلمـا بدأ كمارلا بهتّان وأتباعه حركة إصلاحية بتأييد من القصر الملكى وتقدموا تقدما ملموسا فى نجاح الحركة، اضطر النساك البوذيون والكهنة للفرار من تلك البقاع ولم يقفوا عند هـذا الحد، بل وبدأ المناهضون للبوذية لشن دعايات واسعة النطاق ضد تعاليم بوذا وإرشاداته ونصائحه. وأنشدوا القصائد ونظموا المنظومات ضد هـــذه التعاليم. ولا تزال هذه الأشعار ينشد بها بعض الطوائف الهندوسية فى مناسبات عديدة مثل احتفال «بهرنى» الذى يجرى أمام المعبـــد المشهور بكدنغلور، واحتفال «پورم» بمدينة چيرتالا. وعقب هـذه الحوادث عاشت كيرله فى مفترق الطرق حقبة من الزمن.

وأثبت كثير من المؤرخين — الذين زاروا مليبار وقاموا بتحقيقات علمية عن أديانها وحضاراتها وعاداتها وطقوسها — بأن البوذية كانت دينهـا الشائع فى كل أنحائهـا. واعتنقت جماعة ناير وإيژاور الدين البوذى، فصارت الطائفة البرهمية التى كانت تمثل أقلية البلاد جماعة محدودة وشاذة عن أغلبيـة الشعب. ولم يكن لها صوت مسموع ورأى مقبول بين أوساط الأهالى الكثيرين. وهناك رأى شائع بأن طائفتى «پيشارڈى» و«نامبيڈى» كانتا من أتباع الطائفـة البوذية القديمـة

فى مليبار. وتوحد هاتان الطائفتان بكثرة فى الأماكن الهندوسية فى مليبار وإمارتى ترافكور وكوتشين.

واستنحد البراهمة بأمراء «پانٹیا» وأغنيائها وأعيانها للقضاء على الوذية والبوذيين فى كيرله. وسعوا أيضا فى تحريد الكتب الأدبية المؤلفة فى داك العصر عن كتابة الحوادث والوقائع التى حرت فيها فى ذلك العهـــد، وعن تدوين آداب الوذية ومنتجاتها العلمية والفكرية. ونجحوا فى تلك المساعى حتى طهرت المؤلفات الأدبية والكتب التاريخية والرسائل العلمية كلها أو حلها خالية عن دكر دلك العهد الماضى البودى. وفى الوقت نفسه حاولوا للاثبات بأن كيرله منحة إلهيـة منحها لهم «پرشو رامان». وأثبتوا هده الأسطورة بطريق القصص والروايات. ولا يستطيع المؤرخ الحديث الوصول إلى حقائق التاريخ، والوقوف على المعلومات الصحيحة إلا إذا غربل تلك الأساطير والأقاصيص بغربال الوقائع التاريخية فى ضوء البحث العلمى والتاريخى المدعم بأسس علمية.

وبعد انهيار العهد البودى فى كيرله ولدتْ ثقافة مزدوجة متأثرة من الماضى البعيد والماضى القريب الدى لم يجف ماؤه من ينابيع الوذية. فبدأ القوم يعبدون بودا نفسه بعد أن كان بودا ينكر عبادة الأشخاص وينصح ضد الوثنية. وبدؤا يدعون بوذا باسم «وشنو»، و «مهابير جينا» باسم «كروماڈى كٹن». وبالشروع فى عبادة بودا وباعتباره إلهاً انهار الأساس الذى بنى عليه الدين البودى وانقلبت تعاليم بوذا رأسا على عقب. وتسرب الوهن والضعف إلى كيانه. وكذلك ساعـدت الحركات التعصبية التى قامت بها الطائفة البرهمية على حدوث انشقاق وتشتت بين صفوف الناس. وتفرقوا إلى شيع وطوائف. وانتشرت الخرافات والخزعبلات فى عقائدهم وتقاليـدهم. وساد الهجرج والمرج بين أتباع الأديان المختلفة وأصحاب الآراء المتعددة.

وهكذا استطاع البراهمة بفضل المجهودات والدعايات التى قاموا بها قرابة ثلاثة قرون أن يصبحوا أصحاب الممتلكات الضخمة، وولاة الأمور فى شؤون البلاد والمشرفين على أوقاف المعابد والمؤسسات الخيرية. وبذروا بذور «عدم اللمس» (لامساس) والعصرية فى البلاد. ولكن المبادئ الانسانية التى دعا إليها بوذا والعدالة الاجتماعية التى كان ينشر بها البوذيون فى أنحاء البلاد لا زالت متأصلة الجذور. ومهما حاول البراهمة بعدة طرق لنشر الفوارق اللونية والعصرية بين الأهالى، لم ينجحوا فى اقتلاع جذور التعاليم الانسانية ومبادئ الاخوة والمساواة التى تمكنت فى قلوبهم منذ عهد انشاق فجر البوذية فى تلك البقاع. بل أدهى وأمر من هذا كله أن البراهمة كانوا ينادون باسم «بودى» فى صدد الازدراء والاستهزاء. وبنوا حضارة جديدة على قواعد الحضارة البوذية. ولكن لا تزال تلك القواعد باقية بارزة، ولو تحت الأبنية الحديثة التى بناها البراهمة، قاصدين القضاء التام على تلك الآثار، وإسدال الستار الكثيف على الحضارة التى ربما تبعث أشعتها من خلال الظلام والأبواب المغلقة.

وبهذا اتضح لنا جليا بأن كيرله كانت تحتضن عصرا ذهبياً، وحضارة غنية، وثقافة مليئة بأنواع من التعاليم الحقة، والارشادات القيمة، والعدالة الاجتماعية، والمساواة الانسانية وتعيد الهند الحديثة الآن ذلك العهد المجيد وتحول المياه إلى مجاريها الطبيعية. وكانت سواحل الهند الغربية تستولى على زمام الرخاء والثراء والمدنيــة من القرن الأول قبل الميلاد إلى القرن الرابع بعد الميلاد. والذين تزعموا تلك المدنية، وتولوا مهمة ربطها بالبلاد الخارجية، وقاموا بعدة إصلاحات فى تلك البقعة العريقة بالقارة الهندية فى أول الأمر، هم الزعماء البوذيون.

وعاش الناس فى وداد ومحبة طبقا للتعاليم البوذية. ولم يكونوا يعرفون الفرقــة والشقاق، والبغض والكراهيــة، وساد الأمن والطمأنينة فى طول البلاد

وعرضها. وكانت تعاليم بوذا رائدهم فى حياتهم اليوميـــة، وإرشاداته قائدهم فى معاملاتهم وتصرفاتهم فى الشؤون كلها. وكانت تلك العصور مشاعل النور والعرفان للانسانية كلها.

وها هى الهند الآن تهب مرة أخرى لتقود الانسانية الطائشة إلى بر النجاح، ولتأخـــذ بالعالم الزاخر فى أمواج الاضطرابات والحوادث المؤلمة التى لا يدرى عواقبها الوخيمة إلا الله إلى شاطئ الأمان والسلام. وتمهد لها الطرق الصحيحة وترشدها إلى الطريق السوى تلك الصفحات المجيدة فى تاريخ الهند القديمة.

﴿ الأسرة المالكة المسلمة الأولى فى مليبار ﴾

فى مدينة كنور بشمال مليبار أسرة مالكة مسلمة تعرف باسم «أركل راجاومشم» أى الأسرة المالكة بأركل. ويرجع تاريخ هذه الأسرة إلى زمن قدوم مالك بن دينار، وشرف بن مالك من جزيرة العرب إلى مليبار، حاملين لواء الدعوة الاسلامية. ولهذه الأسرة علاقة وثيقة ببدء الدعوة الاسلامية فى ربوع مليبار. ويقال إن هذه الأسرة يرجع أصلها إلى چيرمان پيرمال. وكان مؤسس هذه الأسرة المالكة محمد على ابن السيدة «سرى ديوى» أخت چيرمان پيرمال. وكان اسمه الأصلى «مهابالى» قبل اعتناق الاسلام. ويظهر من المخطوطة فى قصر أركل أن ابن سرى ديوى إعتنق الدين الاسلامى فى سنــة ٦٤ هجرية، وأسس هذه الأسرة المـالكة وشيد بناءها على أساس متين. وكانت عاصمتها الأولى فى مدينة دهرمدّم.

وتوجد فى قصر على راجا الحالى فى كنور وثائق تاريخية عديدة تنطق بقدم هذه الأسرة، ومدى النفوذ الواسع الذى كانت تتمتع به فى أنحاء مليبار كلها. ومن ضمن تلك الوثائق التاريخية الصحائف النحاسية، والنقود التاريخية، والوثائق المكتوبة عن المعاهدات والأحلاف، سواء فى اللغة العربية أو الخط العربى المليبارى.

ولهـــذه الأسرة يد طولى فى نشر الدعوة الاسلامية فى كيرله وتثبيت أقدامها وإسكان المسلمين القادمين إليها من البلاد العربية أو من سائر أنحاء القارة الهندية.

وتثبت الحقائق التاريخية بأن الاسلام قد انتشر فى بلاد مليبار فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم. وأكبر دليل تاريخى على ذلك تلك النقود الفضية التى نشرتها الأسرة المالكة بأركل فى كنور فى القرن الثامن للميلاد. وهذه الواقعة تفند الرأى القائل بأن الاسلام جاء إلى مليبار بعد القرن الثانى لوفاة النبى عليه الصلاة والسلام. وعرضت النقود التى تحمل اسم ملك أركل فى المعرض الثقـافى الذى أقيم فى مدراس عام ١٩٤٣ م. وتحتفظ هـــذه الأسرة على تراثها القديم وتحافظ على مجدها الغابر منذ القرون. وأصبحت هذه الوثائق التاريخية المكتشفة فى قصر أركل من نقود ومخطوطات ومنحوتات ورسائل وغيرها أقوى الحجج التاريخيـــة لتفنيد رأى صاحب «تحفة المجاهدين» بأن الدعوة الاسلامية قد ابتدأت فى مليبار فى القرن العاشر للميلاد. ومن المؤسف أن كثيرا من الكتب التاريخية التى ألفت بعده تنقل هذا الرأى بدون تمحيص وتحقيق. مع أن المؤرخ الفارسى المشهور ابن عرفشه ١٤٧٦، والمؤرخ العربى المعروف فخر الدين ١٢٧٢، قد صرحا بأن الاسلام بدأ ينتشر فى سواحل الهند العربية فى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم. وجاءت وثائق أركل مؤيدة لرأى هذين المؤرخين. واستناداً على رأى صـاحب «تحفة المجاهدين» قال بعض المؤرخين مثل رولنسيان و «ذبلو، إناس» و «ك. ب. بلينابير مينون» إن الاسلام جاء إلى مليبار بعد القرن الثانى من الهجرة.

وثبت أيضا بأن تاريخ بناء المساجد الموجودة حاليا فى مدن چاليم وكدنغلور وكويلانڈى وغيرها من عواصم مليبار القديمـــة يرجع إلى عام ١٢٠ هجرى أى ٧٠٠ ميلادى. وهذا الواقع التاريخى ليلفت أنظارنا إلى ما قبل ألف سنة فى تاريخ كيرله القديمة.

وقال السائح المعروف «فراير أوڈوريك» الذى زار كيرله وجاب فى أنحائها: «كانت للمسلمين مستعمرات خاصة فى كولم، وپنتالاينى وغيرها منذ أوائل القرن العاشر للميلاد.

وكان يدعى كل واحد من ملوك الأسرة المالكة بلقب «آدى راجا» أى الملك الأول أو «آزى راجا» أى ملك البحار. ولقبوا بألقاب السلاطين منذ القرن الثالث عشر للميلاد. ويقول بعض المؤرخين: كانت كنور تحت حكم ملك كولترى. وكان الملك الكولترى معاصراً لساموترى (سامرى)، وأقام بصفة دائمة فى مدينة كور. واعتنق قواده ورجال حاشيته الدين الاسلامى. فهكذا جاءت أسرة مالكة مسلمة إلى حيز الوجود فى مليبار، وكان الناس يدعون «على راجا» العظيم بلقب «سلطان البحر».

وتقول أسطورة أخرى بأن فتاة من الأسرة المالكة فى كولترى، تزوجت من مسلم أنقذها مرة من حادثة خطيرة. فعزلوهما فى قصر خاص بعيد عن القصر الملكى. فتكونت أسرة مستقلة من هذين الزوجين». ويقول المؤرخ القصصى شنكونى ناير «هذه الأسرة أصبحت تعرف فيما بعد بأسرة أركل، ثم صار إليها حكم البلاد حتى أصبحت أسرة مالكة فى طول البلاد وعرضها».

وهذه الأسطورة تناقضها الحقائق التاريخية الثابتة، لأن أسرة كولترى بدأت تحكم البلاد فى أواخر القرن التاسع الميلادى وكان القرن الحادى عشر عصراً ذهبيا فى تاريخ أسرة كولترى. وعلى هذا بدأت كولترى تبنى مجدها بعد چيرمان پيرمال بزمن غير قليل. وهذا يدل على أن الأسرة المالكة فى أركل غير متفرعة من أسرة كولترى، مع أنها أسبق زمناً من تاريخ قيام أسرة كولترى التى تدعى الأساطير أنها مرتبطة بأسرة أركل.

وبدأت الأسرة المالكة بأركل توثق علاقاتها مع البلدان الخارجية فى أوروبا

والبلاد الشرقية، ورلت إلى الميدان العالمى، فاشتهرت فى معظم بلاد العالم. وبنى ملك أركل قصورا وقلاعا فى كنور بعد أن نقل عاصمته إليها من دهرمدم. وبعد مدة أصبحت كنور مركز التجارة الخارجية. وكان الملك يتولى بنفسه مهمة تصدير المنتجات الهامة إلى الخارج مثل الفلفل، والقرنفل وغيرهما. وذاع صيته فى الأسواق التجارية بمصر وأفريقيا ولبنان وجزيرة العرب، واشتهر باسم «الملك التاجر».

وقام الملك ببناء العمارات، وتشييد المدن، وتدريب الجيوش على طراز البلاد الأجنبية، ودعم وسائل الدفاع عن الوطن، وعمل فى سبيل كرامة البلاد وشرف الأمة وعزتها. وقام باصلاحات حديثة فى الموانئ والمدن الرئيسية حيث يفد إليها الأجانب والسواح للتجارة والسياحة من كل أرجاء الدنيا. وهكذا أصبح زمام التجارة البحرية والبرية فى يد الملك.

وكان يشرف أيضا على جزر «محلديب»، و«لكتشهاديب»، و«أندروت ديب». ووصلت السفن التجارية التابعة لأسرة أركل إلى موانئ البلاد النائية. وكلما عقدت معاهدة تجارية جديدة، كانت صنعت سفن شراعية جديدة لتضاف إلى تلك المجموعة. وكانت ورشة كنور أكبر ورشات السفن فى موانئ العالم. وبعد أن تولى ملك أركل حكم جزر محلديب، أدخلت تعديلات هامة عديدة فى سياسة مليبار وكيفية الحكم فيها

وطالب أهالى محلديب بالحكم الذاتى، وكافحوا فى سبيل الانفصال عن مليبار لتأسيس حكومة مستقلة ذات سيادة كاملة واستطاع السلطان ٹيپو والأمير حيدر على لصد عدوان القوات الأجنبية بمساعدة من جيوش ملك أركل. وكانت جيوش كولترى تتربص بملك أركل فى تلك الأيام. ونشبت المعارك بين الطرفين مرتين. ولكن منى الجانبان بخسائر فادحة بدون نتيجة تذكر. وانتهز البرتغاليون هذه الفرصة، وشجعوا الخلافات والحروب بين ملوك مليبار بعضهم

بعضا، ونجحوا فى هذا الميدان نجاحاً مرموقا. ولم يتركوا فرصة سانحة إلا انتهزوها لتعزيز موقفهم فى البلاد، وبذر بذور الفتنة والبغضاء بين ملوكها وحكامها.

فنى عام ١٥٠٥ م. بنى البرتغاليون قلعة كبيرة فى مدينة كنور شمال مليبار تحت ستار توسيع التبادل التجارى. وأصبحت تلك القلعة مصدر قلق وتهديد لحكام الوطن. فجرت ثلاث عشرة معركة عنيفة بين البرتغاليين وبين حكام البلاد فى سبيل الاحتلال على تلك القلعة المشؤومة، لأنها كانت فيما تعد مركز الجيوش الأجنبية ومصدر الخطر على استقلال البلاد ورفاهيتها ورخائها. وأبرمت عدة معاهدات ودية وتجارية بين ملك أركل وبين البلاد الخارجية. وكان يستقبل السفراء والمندوبين من مصر وتركيا، وإيران وأفغانستان وغيرها من البلاد الشقيقة والمجاورة.

ولما وصل الهولنديون إلى «مليبار» عرفوا قوة جيوش أركل وإخلاصها للوطن. وبعد أن استقرت أقدامهم فى أنحائها وصارت فى أيديهم الأسواق التجارية فكروا فى التعايش السلمى مع العائلة المالكة بأركل خوفاً من جيوشها المخلصة واستعدادها التام للتضحية فى سبيل الوطن.

وفى سنة ١٧٧٠ م. باع الهولنديون قلعة كنور إلى ملكة «أركل» المشهورة بلقب «أركل بى بى» مقابل مأتى ألف روبية، وعززوا قواتهم الدفاعية عن الاعتداء الخارجى. وألفوا جيوشا بحرية وبرية. وتعهد كل جندى بالتضحية فى سبيل الدفاع عن شرف الوطن، وحماية كرامته. ودخل الأمير حيدر على فى صلح مع «بى بى أركل» حينما علم قوة جيوش أسرة أركل وشوكتها وإخلاصها، وقدم بنفسه إلى مليبار. وبعد ذلك اقتفى ابنه، السلطان ثيبو نفس النهج وأبرم معاهدات عديدة مع بى بى أركل. وأقام السلطان ثيبو مدة من الزمن عند الأسرة المالكة بكنور مشرفاً على شؤون الدفاع. واستمرت هذه الصلات والصداقة بين ثيبو وبين الأسرة المالكة بأركل إلى الحرب الأخيرة الناشبة بينه وبين شركة الهند الشرقية.

وكانت رحلة ثيبو عن كور بداية عهد الاضمحلال والتأخر لأسرة أركل. وأضمر الانجليز حقــداً دفيناً وكراهية شديدة نحو السلطان ثيبو، لأنه كان زعيم القوات الدفاعية وقائد حركة التحرير. وانضمت جيوش «چركل» وبلادها المجاورة إلى جانب شركة الهند الشرقية ضد سلطان ثيبو. وظهر الانجليز بلونهم الحقيقى وحاولوا السيطرة على قلعة كنور بعد أن عاشوا تحت ستار الصداقة والود زمنا قليلا، وبعده اغتصاب مراكز التجارة من ملوك كور. وتحقيقاً لهـذين الهدفين قامت «شركة الهنــد الشرقية» بالاستيلاء على ميدان القلعة للتدريب العسكرى عام ١٧٩٣ م. فى سنة ١٩٠٥ م شنوا حملات متواصلة للاستيلاء على الامارات فى طول البلاد وعرضهـا واحدة فواحدة. ولضم المهاراجات والأمراء إلى صفوفهم أولا فأولا. وعقد الانجليز معاهــدة صلح مع أسرة أركل بشرط أن تدفع إليهم جزءاً من إيرادات الجزر التى تحكمها الأسرة. وكانت هذه المعاهدة فى عام ١٧٩٦ م.

ثم تدرج الانجليز بالمطالبــة بالزيادة فى هـذا الجزء. حتى جردوا الأسرة تماماً عن الحصول على شىء من إيراداتها. وعزم الانجليز على القضاء التام على هذه الأسرة المالكة لتأييدها السلطان ثيبو فى حروبه معهم. فأصدروا باسم حاكم مـدراس حكماً قانونياً بمصادرة جميع ممتلكات الأسرة بأركل بدعوى أنها لم تف بالوعود الواردة فى المعاهدة المذكورة. ولـكن «بى بى أركل» قدمت شـكـوى بعدم شرعية مصادرة ممتلكاتها الخاصة إلى اللجنة الادارية لشركة الهنـد الشرقية، فكان حكم اللجنة فى صالح بى بى. ففى عام ١٨٦١ م، أعادت الشركة ما صادرتها إلى «بى بى أركل» بناء على الحكم السابق.

وقرر حاكم مدراس الانجليزى الانتقام من الأسرة فى الوقت الملائم. واستطاع الانجليز الاستيلاء على قلعة كور بعد معركة دامية. وقتل فيها ملك أركل زوج بى بى المــذكورة وغيره من القواد والعظماء. وأخيراً انتصر الانجليز على جيوش

« مايلا » بعد أن فشلوا مرات فى الحروب التى جرت مع جيوش مايلا الباسلة . فأخذ البريطانيون من الأهالى حوالى مأتى ألف روبية على سبيل الغرامة لمناهضة الانجليز. وفرض البريطانيون ضرائب باهظة على البضائع المستوردة من الخارج، وكذلك فرضوا قيوداً كثيرة على الصادرات إلى الخارج. فاضطر التجار الأجانب للتخلى عن التجارة مع الأسرة المالكة بأركل. ونقضت البلاد الخارجية معاهداتها المعقودة مع ملك أركل بسبب تعـــذر الاستمرار فى التجـارة مع الأسرة تحت ضغط « شركة الهند الشرقية » والحكام الانجليز.

فبهذا اكتملت سيطرة الانجليز على الأسواق التجارية فى داخل البلاد وخارجها. وقضوا على زمام تجارة الفلفل وتصديره إلى البلاد الأجنبية. ومن ضمن الأشياء المصادرة فى عام ١٧٩٣ م أطباق ثمينة، وسيوف مذهبة، والتاج الذهبى والعرش الملكى. وألفت اللجنة الادارية لشركة الهنـد الشرقية لجنة خاصة لتقدير قيمة هذه الأشياء. فقدرت اللجنة قيمتها بمليونين وستمائة ألف روبية، وتوفيت ملكة « أركل » المعروفة باسم « جون أما بى بى » فى عام ١٨١٩ م. بعد أن شهدت التطورات الخطيرة والانقلابات العظيمة فى تاريخ الأسرة. وحافظت الأسرة على الوفاء بمعاهداتهـا وأحلافها، ولكن الأجانب المستعلين خدعوها وخانوها عـدة مرات. وأثنى المؤرخون البرتغاليون والهولنديون على أمانة هذه الأسرة وكرامتها فى الايفـاء بالوعود ورد الأمانات إلى أهلهـا. وحفظت تلك المواثيق والآثار التـاريخية فى قصر أركل إلى يومنا هذا. ويظهر منها جميع التقلبات والتطورات التى حدثت فى تاريخ هذه الأسرة بل فى تاريخ مليبار كلها.

وسجل التاريخ خدمات هذه الأسرة بمـداد من النور. ولم يكن ملوك هذه الأسرة مستبدين أو « ارستقراطيين » بل كانوا جميعا ديموقراطيين وحكاما عادلين. وكانت لخزانة الدولة أربعة مفاتيح، واحد منها عند الملك، والثانى يأخذه مدير

مصلحة التجارة، والثالث يقبضه رئيس القضاة، والأخير عنـد صاحب الخزانة. ويحضر الأربعة عند فتح الخزانة. وهذا نظام يدل على العدالة الاجتماعية التى كانت تسود فى أنظمتهم وقوانينهم.

ويقول المؤرخ اف. اس. داويد «إن الأسرة المالكة مأركل كانت مثلا أعلى لمحاربة الظلم والكذب والفساد. وكان شعارها العدل، والصدق، والمحبة.